د. نادر سراج

المَثَليّات العربية داخل علوم اللاوعي
الذكورية نموذجاً

I. مقدمة:

ليس ثمّة صورة مستقلة للذكر في مروياتنا الشفهية التي جُمِعت وصُنّفت على شكل أمثال شعبية وأقوال سائرة وحكايات ونوادر وأحاجي وأغاني هدهدة الأطفال وسواها مما عبر عن واقع الحال، وجرى على الألسن واختزنته الذاكرات الجماعية، وتوارثته الأجيال. والملاحظة البديهية للباحث في هذا المجال أن صورتي الأنثى والذكر، تتزاوجان وتترافقان في ثنايا علم الإناسة (أي الأنثربولوجيا العربية المعاصرة) الذي يحفلُ، إسوةً بغيره، بالوافر من الحكايات والأساطير والأغاني والأشعارِ والأمثال الشعبية التي تروي قصص الحب والعشق والوصل والمودة والخصام... ووقائع الحياة اليومية من كدّ وعمل وألفة وحنين ونزاع وخصام. وغالباً ما تتردّدُ في وجداننا، النماذج الرائدة لهذا الأدب الشعبي ملونةً فضاءنا الثقافي ومدغدغةً كوامننا وهواماتنا الرومنسية ومذكرة إيانا بما مضى وبما يمكننا استحضاره منها لتبرير قوعاتنا الشخصية أو أحداثنا اليومية. ولا نغفل في هذا المجالِ الأمثال الشعبية والأقوال الشائعة، عماد هذا القطاع المتعدد المجالات. ومن المنطقي الإشارة إلى أن كلا الشريكين، أي الذكر والأنثى، يجتمعان في هذه الأمثال بتداخلٍ وتشابكٍ وشبهِ تعادلٍ حيناً يسيراً، وبغلبةِ طرفٍ، هو الذكوري بلا شك، على الآخر في ميادينَ كثيرة تعكس الطبيعة الذكورية والبنية المنجرحة للعائلة التقليدية والأوساط الشعبية؛ حيث يُحَلُّ الذكر بالطبع قبل الأنثى، موقعاً ومقاماً، وسطوةً وتأثيراً.

II. الإشكالية:

ما هي المنزلةُ الحقيقيةُ للذكر في ذلك القطاع الغني والشديد التعبير، الذي ميّزناه داخل الإناسة؟ أو بالأحرى ما هي المنزلةُ التي خُصَّ بها الذكر في تجليات ذلك القطاع؟ هل يسهم الموروث الشعبي في إجلاء صورة متسيّدة للذكر، المتحيز لبني جنسه، والمتلمس علائم ذكوريته، والمتجلبب بسمة التفوق التي لا ينى العرفُ والتراتبُ الاجتماعي التقليدي، يزينانها له في بعض مناطقنا الشعبية؟ كيف *تُستحضَر* هذه الأمثال صورة الرجل، في قسوة ملامحها وصرامة تعاطيها مع الجنس الآخر؟ وكيف تبدو معالم التحولات الملحوظة في تظهير صورة الذكر، في وسائل الإعلام المرئية المتأثرة بمفهوم الجندر من جهة والمتعاظمة التأثير الجماهيري من جهة أخرى؟

هذه التساؤلاتٌ وسواها تواجه الباحث في موضوع لساني اجتماعي، بل ثقافي وحضاري. وكي نفيَ هذا الموضوعَ حقّه من البحثِ والمعالجة، ونخلصَ الى نتائج مؤشِّرة، ولا نبقى في إطار العمومياتِ والتحليلات النقدية، نستعرض الوظائف والتوصيفات التي خَصّت الذكرَ بها مروياتُنا الشفهيةُ، ولا سيما الأمثالُ الشعبيةُ، منها تحديداً. ولن نغفلَ بالطبع أنه ينتمي للجنس المتحكم الذي – من باب الافتراض والترجيح – وضع بأنامله أغلب هذه الأمثال، ورُويت عن ألسنته خدمةً لمآربه الشخصية وإبقاءً لسيطرته داخل العائلة وتأكيداً لإمساكه بناصيتي الفعل وتمظهره اللغوي.

III. **المثل الشعبي مستحضراً صورة الذكر:**

إن المستعرضَ لمجموع الأمثال الشعبية التي تغلِّف ثقافتَنا الكلامية والتي تتناهى الى الأسماع، وتلهجُ بها الشفاهُ في غير موقفٍ لغوي معاش أو سياقٍ تعبيري عادي، يتلمس مواقف متناقضة، منها ما هو إيجابي ومنها ما هو تعادلي ومطمئِن. ولكنه يُفاجأ ببعض التصورات الجارحة أو السلبية والنقائص الخلقية والجسدية والأخلاقية والنفسية التي ترتبط بالجنسين تحديداً، وتسهم مجتمعة في ترسيخ صورةٍ "مروتشة" لكل منهما في أخلاد العامة – حسب الراوي والمتلقي – وترافقهما في مختلفِ أدوارهما الإنسانية المعروفة. ومثلنا الشعبي لا يستوي قولاً وتعبيراً وصدقَ دلالةٍ إلا إذا اتكأ على طرفيه الطبيعين؛ أي على "القوّامين على النساء"، من جهة – وغلبتهم التعبيرية لا تشكيك فيها – وعلى "النساء شقائق الرجال"، من جهة ثانية.

ونبدأ بالإشارة إلى أن الذكرَ يردُ في ثنايا الأمثال والأقوال على صور عديدة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: الأب والعم والخال والجد والزوج والرجل (الراجل، رجّال، ريّل) والزلمي وإبن العم والإبن وإبن الإبن وإبن البنت،... ولكن حضوره في ثنايا الأمثال يتصل أيضاً بالأدوار الموكولة إليه والصفات المعهودة عنه. فهو: رجّال عندو ولاد، والمطلق والأرمل وإبن الحلال وإبن الستين، والحكم والجيد والضيف والصديق والكبير والعريس والطويل والقصير، وسواها.

هذه التوصيفات بعضها واقعي وإيجابي ويعكس مروحة الوظائف والمسؤوليات التي ينهض بها في مجتمعاتنا، وبعضها الآخر تبخيسي وازدرائي وتشكيكي، يسعى للنيل من صورته وفق الوقائع والظروف التاريخية والاجتماعية التي أنتجت هذه الأمثال. وقد لفتت انتباهنا هذه الدلالات التمييزية المتأرجحة والمتذبذبة لدى معالجتنا هذا الموضوع. وللتذكير فإن الصور المظهّرة لكلا الجنسين – والذكر تحديداً – في منظومة سلوكياتنا اللغوية الاجتماعية تتأثر بلا شك بذيول السجالات التاريخية والقيمية بين شريكي الحياة، والتي تتغذى عموماً من مخزوننا الشعبي ووعينا الثقافي وذاكرتنا الجماعية ورؤيتنا لأنفسنا وللآخر وللعالم من حولنا.

وقد أسهمت فضائياتنا العربية، وخصوصاً في مسلسلاتها الرمضانية في استحضار صورٍ منمّطة ونماذج استعادية – بالألوان – للتمايز الذكوري وللسجالات الكلامية التقليدية المعروفة. ولنا في المسلسل السوري "باب الحارة2" الذي استقطب في الآونة الأخيرة اهتمام الشارع العربي، خير نموذج على الصور التي روّجت للتسلط الذكوري بشخص "أبو عصام" – ولو من أبواب الشهامة والأخلاق والنضال – على حساب الشخصيات النسائية "إللي ما طالع بإيدها شي"! والتي ظلمت باعتبار "ما إلها كلمة". وفي معرض الانتقادات التي وجهت لهذه الشخصية الذكورية كأن يعمد " ابو عصام " إلى البكاء، يرد كاتب المسلسل مروان قاووق مدافعاً عن هذا الانفعال الذكوري الذي لم يستسغه بعض الجمهور بالقول: "أبو عصام لم يبكِ، قال: أنا رجل وأتمنى لو أنني أستطيع البكاء" [1]. وبالعودة إلى قيم التآخي والتسامح والتوادّ التي تنضح بها جلسات تركيب المقلة والاستقبالات النسائية، فهي لم تحجب صورة النساء المطيعات الغارقات في عوالم تكرس معالم الذكورية المهيمنة. ونتمثل على ذلك باللواتي كنّ "يخلعن أحذية رجالهنّ" و"يغسلن أرجلهنّ" على إيقاعات "يخلليلي ياك يا إبن عمي" في مواجهة حفلة تقريع وشتم وتنديد: "اخرسي" و"سدّي حلقك" و"إمشي قدامي يا ناقصة عقل" و"يا ريت اندبحتي وما تطلقتي"... وقد أظهرت الأحداث أن تكبير الراس النسوي في مواجهة الزوج، أو إبن العم، وتداعياته الكلامية مثل "قشرت" أوقت إلى "خربان بيوت" ومهانات وتعقيدات.

وقبل أن نستعرض نماذج لهذه الوظائف والأدوار والتوصيفات المنسوبة إلى الذكر في أمثالنا الشعبية نتساءل هل أن هذه الصور المروّجة عن الذكر، المعلية لشأنه من جانب، والمبخّسة لموقعه من جانب آخر، تتكامل – على تناقضها الظاهري – في تظهير نظرة المجتمع إليه، نساءً ورجالاً؟ كما نتساءل أيضاً عن دور الثقافة البطريركية في ترسيخ هذه الصور المنمطة التي لا تعترف – لا فعلياً ولا لفظياً – بتساوي الجنسين، بل تنادي بأفضلية الذكر وريادته، موكلةً إليه شؤون الحلّ والربط، ومحلّةً إياه في مرتبة أعلى من مرتبة ممن يُفترضُ بها أن تشاركه الحياة في السّراء والضرّاء.

IV- المنهجية المعتمدة:

غنيٌ عن القول أن أمثالنا الشعبية[2] اللبنانية[3]، والعربية عموماً جُمعت ودُرست وشُرحت وحُلِّلت[4] وبُوِّبت وقورنت[5] بشقيقاتها العربيات على أيدي الباحثين والمهتمين. وقد إتخذتُ من الأمثال العربية المتعلقة

1- صحيفة الشرق الأوسط، الملحق الأدبي، 07/10/24.

2- عدت إلى مصنفات الأمثال العربية التالية على سبيل المقارنة والتنويع:

أ. **الأمثال البغدادية**، الشيخ جلال الحنفي، مطبعة أسعد، بغداد، ج"1"، 1962.
ب. **الأمثال العامية**، أحمد تيمور، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، 1968.
ت. **اللهجة اليمانية في النكت والأمثال الصنعانية**، زيد بن علي عنان، دار الكلمة، صنعاء، التاريخ غير مذكور.
ث. **زينة الكلام في دمشق الشام**، محيي الدين قرنفله، مطبعة ألف باء-الأديب، دمشق، ط"1"، 1989.
ج. **الكنايات العامية الشامية وأصولها الفصيحة**، محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، ط"1"، 1988.
ح. **يا مال الشام**، سهام ترجمان، مطابع ألف باء - الأديب، دمشق، ط"3"، 1990.
خ. **أمثال وأمثال لكل الأجيال**، خميس اسماعيل، دبي - الإمارات العربية المتحدة، ج "1"، ط"1"، 1993.

بالذكر ميداناً نموذجياً لهذه الدراسة الموجزة والمعبرة عن السيرورة والأفكار السائدة. ورجعتُ في مجال الأمثال اللبنانية إلى كتب أنيس فريحة وسعد الدين فروخ وزاهي ناضر[6]، واستعنت كذلك بكتابي محسن الأمين وسلام الراسي. فضلاً عن كتاب "**بيروتنا**[7]" لعبد اللطيف فاخوري ومختار عيتاني. وأضفت إليها الأمثال المسموعة وغير المدونة التي التقطها من أفواه مستخدميها مباشرة. ولكنني توقفت تحديداً عند مؤلف فريحة "**معجم الأمثال اللبنانية الحديثة**"[8]. وبغية القيام بدراسة صورة الذكر في ضوء الأمثال الشعبية اللبنانية، ومقارنتها بالأمثال العربية، توسلت إلى ذلك بطريقتين:

1. العودة الى مصنّفات الأمثال الشعبية اللبنانية والعربية على حدٍّ سواء.
2. جمع أمثال شعبية رائجة وغير مدوّنة مشافهةً من أفواه مستخدميها وسامعيها، وإضافتها إلى معطياتي اللغوية المثبتة من متون الكتب.
3. وبغية توضيح القصد من بحثي الذي يتناول تحديداً المثل المتصل بالذكر أو العائد له، أضيف تحديدَ إطار الدراسة: الإشكالية الأساسية هي البحث في الامثال الشعبية اللبنانية أولاً والعربية ثانياً الموضوعة، واستخراج تلك التي ترد فيها إشارةٌ عن الذكر في مختلف توصيفاته: **(الرجل، الأب، الصهر، العريس، الإبن، الجد**، إلخ...)؛ أو تلك التي تتكلم عنه أو تخاطبه، تصريحاً أو تلميحاً، فردياً أو جماعياً، بصيغتي المخاطب والغائب، أو تلك التي ترد على لسان الذكر مباشرةً أي بصيغة المتكلم فرداً كان أم جماعة. هذه الأمثال "الذكورية"، إذا صحّ القول، تتناول مختلف مراحل الذكر وشؤونه وأوضاعه واهتماماته في حياته اليومية، مدينية كانت أو ريفيةً، موسرةً كانت أو مُعْدَمَة، شاباً كان أو رجلاً أو

د. **غرائب النساء**، سيد صديق عبد الفتاح، المركز العربي للثقافة والعلوم، بيروت، بدون تاريخ.

[3]- أنظر على سبيل المثال:
أ. **خطط جبل عامل**، السيد محسن الأمين، دار المحجة البيضاء، بيروت، ط. 1، 2002،
ب. **الناس أجناس**، سلام الراسي، منشورات نوفل، بيروت، سلسلة الأدب الشعبي، الرقم "12"، ط"1"، 1995.

[4] - أنظر على سبيل المثال: **نحو سوسيولوجيا للثقافة الشعبية**، خليل أحمد خليل، دار الحداثة، بيروت، ط"1"، 1979.

[5] - أنظر على سبيل المثال:
أ. **وحدة الأمثال العامية في البلاد العربية**، محمد قنديل البقلي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1968.
ب. **الجمان في الأمثال، دراسة تاريخية مقارنة**، جمانة طه، دمشق، ط"1"، 1991.
ج. **الأمثال الكويتية المقارنة**، أحمد البشر الرومي، صفوت كمال، مطبعة حكومة الكويت، 3 أجزاء، ط"1" 1978.

6- **مجمع الأمثال للميداني**، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ط"2"، 1987، بيروت، دار الجيل، ج"1" ص. 87.

7- **بيروتنا**، مختار عيتاني – عبد اللطيف فاخوري، دار الأنيس، بيروت، 1996.

8- منشورات مكتبة لبنان، بيروت 1974. وهو معجم ألفبائي جمع مؤلّفه الأمثال الشعبية اللبنانية التي تروجُ بشكل أساسي في جبل لبنان، وتحديداً عند دروز رأس المتن، والموحدين عموماً، حسبما أوضح في التمهيد.تضم دفتا هذا المؤلَّف أربعة آلاف ومئتين وثمانية وأربعين (4248) مثلاً، استقاها فريحة من طبيعة وأعراف وسلوكيات أبناء رأس المتن (محافظة جبل لبنان). وقد انتقيتُ الأمثال التي تتصلُ بالذكر، وهي في حدود المئتين والثلاثين مثلاً. وقد رصدت في الكتاب نفسه حوالي مئتين وخمسين مثلاً نسائياً أو متصلاً بالأنثى على وجه مخصوص.

9- **أمثالنا العامية**، زاهي ناضر، دار الحداثة، بيروت، ط "1" 1996.

عجوزاً؛ ناهيك عن تطلعاتِه وآماله وطبيعة علاقته بالغير، زوجة وعائلة كانوا أم أقارب أم جيران وزملاء .

4. هذه الأمثال يقول عنها ابراهيم النّظام: "يجتمع في المثل أربعة لا يجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وحسنُ الكناية؛ فهو نهاية البلاغة"[9]. ونضيف إليها القدرة على الشيوع. أتت هذه الأمثال بصيغتها العامية الأساسية، المقفاة أو المسجوعة، والموزونة أو الموقعة. وهي لا ترد بأسلوب أو صيغة موحّدة؛ فهي تتالى بالأسلوب الإنشائي الطلبي، أو بشكل تمنٍ يحمل معنى النصح والمشورة، أو بشكل مناجاةٍ أو بصيغة حوار أو على سبيل الاستفهام أو التعجب أو التندم أو الاستنكار أو الاستعطاف أو التشفّي أو الادعاء، أو الإدراك أو الغباء، إلخ... وكلها مثلما مرّ، تغذي بمجملها نرجسية الرجل وتشبع رغبته بالتفرّد والسيطرة.

V- تعريف المثل وتحديد مستخدميه:

إن المثل الشعبي مأخوذ في معالجتنا هنا على النحو التالي:

مدوّنة لغوية قائمة بذاتها، ورسالة مكتفية بذاتها، وتعبير أو علامة بليغة المضمون، مكثّفة الشكل، جيدة الكناية، وسريعة الإبلاغ والإيصال، إنها وسيلة تعبير متكاملة ومركزة، نشأت عن الجماعة فاختصرت تجاربها الإنسانية، وأوجزت ممارساتها العملية والعقلية والعاطفية، فصاغتها هذه الجماعة، ووضعتها بتصرف الأفراد يغرفون منها، ويلبسون بواسطتها لكل حال لباسها.

إلى ذلك، فالمثل، **متكأ لغوي سائر، ومرجع إسناد واسع الانتشار وسهل الاستحضار، إنه مفصل مؤثر في شدّ انتباه السامع إلى منحىً معيّن مقصود في الخطاب**، وهو يندرج ضمن **المسكوكات اللغوية الجاهزة** (التلوينات الدينية، أشكال التحية والتخاطب، التعبيرات الشبابية، إلخ...) التي تعبّر عن واقع الحال، وتغني عن فائض الكلام.

للمثل **بنيته اللغوية المستقلة**، لذا فهو يُروى ويُكتب إلى حدٍّ ما، بالصيغة نفسها التي جاء بها أساساً، حفاظاً على كيانه الشفوي العفوي، وعلى قدرته الإبلاغية المباشرة. سنحاول في مقاربتنا هذه قراءة هذا التعبير الشعبي المنسّق، محترمين بنيته، ومتعاملين معها كما هي، وساعين إلى استقراء وظائفه ودلالاته المتكاملة والمتناقضة على حدٍّ سواء.

مَنْ يستخدم المثل؟

يروج المثل الشعبي في أوساطنا جميعاً، ولا يكاد يغرب عن عوائدنا الكلامية، ولكن مستخدمه في الغالب واحد من أربعة:

- الشيوخ والطاعنون في السن الذين نشأ هذا المثل وتأصّل في أوساطهم، واستمد صدقيته ومعالمه من لونهم المحلي، وخبرتهم المتعيّنة، فتواصلوا من خلاله سلفاً لخلف، وأسهم بدوره في تأكيد حضورهم واستمراريتهم الثقافية اللغوية. والأمر ينسحب عند أهل الريف تماماً كما عند أبناء المدينة، الذين يتناوبون في استخدامه؛ كلّ في إطار اجتماعه الثقافي مثلما في نطاق الوظائف المرتجاة منه.
- السواد الأعظم من العامة الذين يلونون به لغة التخاطب اليومي، ويعتبرونه بمنزلة مدرسة حية يسيغون ثمارها الجاهزة أنّى ومتى يشاؤون، أو حينما يعييهم القول البليغ والمناسب، فيعوّضون من خلاله عن ثغرات الخطاب وعثراته.
- أولو الأمر وقادة الرأي من الزعماء وأصحاب الشأن ورجالات العمل العام الذين يستحضرونه أنماطاً ودرجاتٍ، وفق سياقات معينة، ويتوسّلونه لخدمة أغراضهم الآنية.
- النخب الاجتماعية الثقافية والسياسية التي تتوسّل هذا المثل لدى توجهها إلى شرائح اقلّ ثقافة وأدنى تعليماً، كي تؤكد على ارتباطها بالمعاش والمحسوس، وتشهر اعترافها بالمستَهلك والشائع من ثقافتنا المشتركة.

VI **باب التشبيهات والمقابلات والمقارنات**:

إذا كان الأصل في المثل هو التشبيه، فهذا الباب بمحسّناته ومجازاته خيرُ مفتاح لفهم مقام الذكر في الأمثال الشعبية. فهو يحوي منظومة من التشبيهات والاستعارات والمقارنات والمقابلات. وقد انتقينا منها حوالى الخمسين لتحليل مضامينها.

والملاحظة الأولى التي تستوقف الناظر هي أن الأطرُ التشبيهية المتنوعة، التي يُحشر فيها الذكر والأنثى عمداً، ويقارنان أحياناً بالجماد أو بالحيوان تنمُّ عن موقف جنسوي مسبّق. فباستثناء بضع تشبيهات إيجابية المنحى توفّر للمشبه، أي للذكر بدرجة أولى وللأنثى بدرجة ثانية، مشبهاتٍ به حسنةَ الاختيار والدلالة، ثمة العديد من المشبهاتِ به والمستعاراتِ منه السلبية وغير المنصفة التي تختص بكلا الجنسين، وفي مختلف أدوارهما الحياتية.

نماذج تحليلية لبعض الأمثال المتضمنة موازنات ومفاضلات ومقابلات

- تماشياً مع مسلمات النظام الأبوي البطريركي، تركز الأمثال على تفضيل إبن الإبن، الموصوف بأنه "**إبن القلب**"، على إبن البنت أو "**إبن الغريب**"[10]. ثمة تفاضلية عائلية وتسلسلاً أبوياً يعكسان

[10] - **أمثالنا العامية**، ص. 157.

المفاهيم السائدة بخصوص أهمية الأبناء الذكور وأولادهم في التراتبية العائلية. فالإبنة والصهر ينجبان "**غرباء**" في حين أن استمرارية العائلة تتأمن عبر "**ولد الولد**".

- تعيير الولد بالوالدين ومن ثمّ بالمنشأ الاجتماعي الوضيع يتخذ صيغة المقابلة: فالأم "**بصلة**" والأب "**توم**" وهنا تساوٍ في المشبه به المشتق من عالم النباتات المفيدة والشديدة الرائحة في آنٍ معاً. من هنا السؤال عن مصدر "الريحة الطيبة المفترضة"[11].
- المقابلة بين الأب الذي "**يدور ليستر الحال**" والأم "**لتجيب المال**". حركة الدوران معكوسة وفق العقلية التقليدية التي تنيط عادة بالأب تأمين الدخل وتفترض بالأم ستر الحال.
- المقارنة بين أبٍ **يبيع** أو **يبعّر الابنة** و**زوج يشتريها ويكبّرها**[12]: ثمّة نزوع أنثوي لاسترضاء الزوج على حساب الوالد.
- التشجيع على زواج الأقارب لما فيه من تحقيق التوافق بين الزوجين. والأولى في هذا المجال هو تفضيل الاقتران "**بإبن العم**" حتى لو "**سفك دمها**"[13]. وهو أيضاً يمنحها اطمئناناً "**واتنشر عليه بكمها**". أما **إبن الخال** "**فتنشر عليه بشالها**"[14] ومن الواضح أن صلات القرابة الأبوية مفضلة على تلك الأمومية.
- تفضيل "**الأخ من الأم**" فهو "**رقعة بكمك**[15]" في مقابل "**الأخت من الأم**" المعتبرة بالنسبة للمتكلم "**الهوى بتمي**". الرقعة في الثوب أبقى من الهوى الذي يعبر الفم خفافاً؛ تفاضلية واضحة تجاه الأخ على حساب الأخت.
- مقارنة ذات طابع فني بين "**صاحب البيت** "**اللي بيزمّر**" والسؤال "**ليه السِّت ما ترقصشي**"[16]. الدلالة الساخرة هنا مفادها أن التسيب مردّه صورة الأب الذي يتساهل ويميل إلى الطيش؛ فتزميره مسبّب لا شك لرقص امرأته. المثل يتضمن إيلام الرجل واتهاماً له بالتقصير.
- مقارنة ثلاثية بين حالات وجدانية متزامنة ضمن العائلة الواحدة **عشق الأب** و**غيرة الأم** و**حيرة الإبنة**[17]؛ ومفادها أن صورة الأب المتزعزعة قد تنعكس سلباً على صورتي الزوجة والابنة. فإهماله زوجته مدعاة لإهماله شؤون بيتها الأمر الذي يولد خصوماً ونفوراً وينعكس حيرة على الإبنة.

---

[11] - **معجم الأمثال اللبنانية الحديثة**، ص. 73.
[12] - **ملامح الشخصية الفلسطينية في أمثالها الشعبية**، ص. 471.
[13] - **الشعب المصري في أمثاله العامية**، ص. 94.
[14] - **الشعب المصري في أمثاله العامية**، ص. 94.
[15] - **أمثالنا الشعبية في الميزان**، أحمد عطيات، دار البيارق، عمان، 1991، 137/1.
[16] - **الشعب المصري في أمثاله العامية**، ص. 106.
[17] - **وحدة الأمثال العامية في البلاد العربية**، ص. 305.

- مقارنة بين "**عقل المرأة في زينها**"، باعتبار أن المرأة يستهويها أن يثني المرء على جمالها، و"**زين الراجل في عقله**[18]" الذي يحبذ الثناء على رجاحة عقله من قِبل الآخرين. لكل منهما الخاصية التي يتمتع بها أو حُبيَ بها، والتي يهوى التأكيد عليه كسمةٍ ملازمة لشخصه.
- مقارنة ثلاثية بين **غياب الأب** و**سيبان الأم** و**سوء حال الأولاد**؛ تكامل بين الأدوار العائلية السلبية المنحى تحت سقف البيت الواحد.
- تفضيل لدور **الأم** "**اللي بتعشّش**"[19] على ذاك الذي يُعزى للأب "**إللي بيطنّش**" أو "**بيطفّش**". ويُضرب لبيان أن الأم أكثر شفقة ورأفة على أولادها من الأب. وفي المقابل ثمّة صورة إيجابية يتساوى فيها الأب الذي "**يضبّ**" أو "**بيحفر وبيطم**[20]" والأم "**إللي بتلمّ**". المفاضلة بين أفراد العائلة ذكوراً أو إناثاً ترتبط بعوامل شعورية أو بأخرى نفعية وظرفية، أو هي تدخل في باب تبادل المصالح أو تكاملها.
- مقارنة تذكيرية وتشبيهية بأهمية **الذكر** في حياة **الأنثى** واستحالة "**شبعها منه**". وهذا أمر صعب المنال ولا يصحّ إلا في حالات ثلاث صعبة التحقّق، ونعني بذلك متى "**شبعت الأرض من المطر**[21]" و"**العين من النظر**" و"**الأذن من الخبر**".
- العيب أو العمل الناقص الذي يلحق بصاحبه وصمة معروف لدى الجنسين. لكن المزاج الشعبي يعتبر أن "**عيب الرجال قلتهم**" في حين أن "**عيب الصبية قلة نصفتها**[22]" وحتى في مجال التعييب، فالمثل ينحاز إلى جانب الذكر.
- المقارنة بين "**الحيل عند الرجال**" و"**الكيد المعروف للنسوان**"؛ حسن التخلص الذكوري المرغوب من قِبل العامة، يقابل بالمفهوم الشائع غير المستحبّ عن الكيدية النّسوية.
- المقارنة بين حميمة العلاقة الزوجية وأسرارها، فهي تشبه "**الرجل ومراته**" و"**القبر وأقفاله**[23]" وسبق أن شُبِّهت المرأة بـ"**قفل الباب**" أو "**وأفعاله**" فهي صندوق سر زوجها ولا يعلم بها أحد ما بينهما من شقاق أو خلاف كما أن القبر لا يعلم أحد ما بداخله.
- مقارنة بين "**الرجال المعتّرة**" التي تفضح "**الحريم المستّرة**"[24]؛ فحسن تدبير النساء وسترهنّ لمنازلهن لا يُقابل أحياناً كثيرة بتصرفات مقبولة من صنف الرجال المعروفين بسمة "**التعتير**".
- ارتباط صورة الذكر بالقدرة على توفير الدخل للأسرة تجلو دوره باعتباره "**الرجّال الجلاّب**" والمفضَّل من ثمّ على دور "**المرأة الجلاّب**[25]".

---

[18] - **الأمثال المراكشية**، ص. 200.
[19] - **وحدة الأمثال العامية في البلاد العربية**، ص. 309.
[20] - **أمثالنا العامية**، ص. 157.
[21] - **معجم الأمثال اللبنانية الحديثة**، ص. 139.
[22] - **الشعب المصري في أمثاله العامية**، ص. 106.
[23] - **وحدة الأمثال العامية في البلاد العربية**، ص. 319.
[24] - **معجم الأمثال اللبنانية الحديثة**، ص. 327.

- ثمّة أولوية **للوجود الذكوري** في البيت والمعتبر "**نعمة**" حتى ولو كان "**فحمة**"؛ أي نفعه ضئيل ومحدود؛ فرمزية وجوده هامة على الصعيد الاجتماعي.
- العباءة هي رمز الرجولة وعنوان الجاه وتأكيد الحيثية الاجتماعية. ومن هذا المنطلق ارتبطت بصورة الرجل فـ"**الكريم بيكرم بعباتو**"[26] أي أنه مستعد لتقديمها لغيره قرباناً لكرمه وكرامته. وثمّة من ينصح الرجل بـ"**مِدحه وخذْ عباته**[27]" أي أن الرجل المحب للتقريظ قد يدفع عباءته ثمناً للمديح. لكن بعضهم يسدي نصيحة للأنثى بالقول "**خدي اللي يشيل خرقتك ولا إللي تشيلي عباته**[28]" وهنا خيار بين من يرفع خرقها البالية ومن ترفع بنفسها عباته أو رمز وجاهته. وثمّة نصيحة تسدى للمقدم على الزواج "**شوف عباته واخطب بناته**[29]" فهي معيار ومؤشر لمكانة والد الفتاة.
- مقارنة إيجابية بين صورتي "**الرجل النمر**[30]" أو الشجاع والمقدام و"**الرجل الجسر**" الذي لا حدود لعطائه و"**الرجل البحر**"، وتلك العائدة إلى "**المرة الجسر**[31]" التي تشدّ الأواصر وتنهض بدور التواصل.
- مفهوم الأمان عند الذكور سمة مشكوك فيها، لذا ثمّة تحذير نسائي بعدم الأمان لهم لأنه مستحيل وأشبه ما يكون بالأمان"**للمية في الغربال**"[32]؛ وفي المقابل ينصح مثل آخر الرجل بضرورة الاحتراز وعدم الأمان لـ"**إنتاية**" لأنه أشبه ما يكون بالأمان "**للميّ بالمصفاية**[33]" وهو أمان في غير محله.
- المقارنة في مجال العمل والكدّ واجبة وخاصة بين "**الزلام على مشاطرها**" و"**النسوان على مغازلها**". فالجنسان يسعيان في مناكبها كلّ وفق أدواره المرسومة وقدراته المتاحة.
- تكامل أدوار **الذكر** و**الأنثى** جليّ في هذه المقارنة الايجابية؛ "**الزلمي جنّا**" و"**المرا بنّا**". وفي المقابل فهذا "**الزلمي**" نفسه متى ضاقت حيلته "**بتفشّش في حليلته**". في هذه المقارنة نجد مفردة "الزلمي" تستبدل بـ"الرجل".

---

[25] - **معجم الأمثال اللبنانية الحديثة**، ص. 651.
[26] - **ملامح الشخصية الفلسطينية في أمثالها الشعبية**،، سليم المبيض، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة، 1990، ص. 327.
[27] - **الأمثال الشعبية البحرينية**، مطبوعات إدارة المتاحف والتراث، البحرين، ط 2 ، 1996، 315/1.
[28] - **ملامح الشخصية الفلسطينية في أمثالها الشعبية**، ص. 466.
[29] - **الأمثال العامية**، ص. 83.
[30] - **ملامح الشخصية الفلسطينية في أمثالها الشعبية**، ص. 472.
[31] - **الشعب المصري في أمثاله العامية**، ص. 106.
[32] - **معجم الأمثال اللبنانية الحديثة**، ص. 132
[33] - **الجمان في الأمثال**، ص. 326.

- مقارنة إيجابية لافتة بين "**الزوج**" باعتباره "**راس مراته**" والزوجة بوصفها "**مفتاح زوجها**"؛ ولكن موقعه ما يلبث أن يتراجع في نظر البعض فيمسي "**رجل كرسي**[34]" أي مجرد عنصر أو أداة مكمّلة لأُخر.
- مقارنة ذات طابع تحذيري تجاه صنفين من الرجال: "**العشيق**" الذي ينبغي ألاّ يؤخذ، أي يصار إلى الاقتران به و"**الطليق**" الذي يستحسن عدم إرجاعه. هذان الدوران المعروفان للذكر يفترض بالأنثى تجنّبهما حفظاً لصحتها النفسية.
- استعادة لمقارنة تشبيهية بين "**الفرس وخيّالها**" و"**المرة ورجّالها**"[35]؛ هذه المقارنة تقليدية وتستمد عناصرها من ثوابت الاجتماع الثقافي العربي لتظهير الدور القيادي للذكر أكان خيالاً لفرسٍ، أم رجلاً يصون عرض إمرأته. واللافت هنا هو متممات صورة المرأة في مختلف البيئات العربية: "**من ريّالها**" في الجزيرة العربية، "**على رجلها**" في تونس، و"**من ورا رجالها**" في لبنان، ويُضرب المثل في فضل القيادة وحسن اثر التوجيه السديد.
- المقابلة هنا تشكل أشبه ما يكون بالثابت العائلي؛ فالرزق بـ"**الغلام**" أو "**بالولاد**"[36] يفترض بالرجل أن يطرح جانباً الحياء أو الخشية من "**بنت العم**" أو من "**مرته**". وبالطبع فهذا المعنى، إسوة بسواه، ينطلق من مسألة أهمية الإنجاب لحفظ النسل والنسب، المترسّخة في أخلاد العامة، لينسحب تالياً على سائر انشغالات الحياة التي تفترض بالمرء الجرأة والإقدام وعدم التردد.
- سمة "**المرّوة**" المطلوبة لدى الجنسين تندرج أيضاً في مجال المقارنة التقليدية في مسألة توزيع الأدوار؛ فـ"**مروّة الشاب ورا الباب**" أي العمل في الخارج، في حين أن "**مروّة البنت ورا الدست**" أي في إطار العمل المنزلي البحت، المثل احترم بشكل حرفي توزيع الأدوار المعهود بين الجنسين.
- مقارنة ساخرة بين **الرجل** باعتباره "**كيال أعمى**" لا يعوّف **المرأة** حتى ولو كانت "**فولة مسوّسة**". المقابلة بين سلبية الأحوال والصفات لدى الجنسين تجعلهما متساويين في ردات الفعل؛ فواحدها لا يبزّ الآخر في حسن اختيار الشريك المناسب.
- هذه من المقارنات التي يتساوى فيها الشريكان في المنحى الإيجابي. فالمرأة تكمل دور الرجل وتساعده في المسؤولية العائلية. فهي تبني في بيتها تاسيساً وتنظيفاً بفضل ما يجنيه الرجل من كدّه وعرق جبينه توافقاً مع المضمون القائل "**الراجل جنّى والمره بنّا**"[37].

---

[34] - **معجم الأمثال اللبنانية الحديثة**، ص. 248.
[35] - **معجم الأمثال اللبنانية الحديثة**، ص. 468.
[36] - **معجم الأمثال اللبنانية الحديثة**، ص. 95.
[37] - **ملامح الشخصية الفلسطينية في أمثالها الشعبية**، ص. 476.

- وفاة أحد الشريكين، والزوجة تحديداً، قد لا يُقابل بما تفترضه الأعراف من إبداء مظاهر الحزن والأسى والتفجّع على شريكة الحياة. لذا يقول المثل "**إن زعل الرجل على مراته**" هو أشبه ما يكون بـ"**دقّة الكوع بالحيط**". ويفترض بهذا الزعل أن يكون ناشئاً عن أمر جلل لحق بأحد الشريكين؛ لكن ردّة الفعل مادية ومحدودة وغير ذات بال ولا معنى! ويؤكد مثل آخر على اللامبالاة المفترضة من بعض الرجال الذين يرون في "**موت المره**" أشبه ما تكون بـ "**الضربة على الركبة**"[38]. وفي المحصّلة فالضربتان المرتقبتان والموصوفتان هنا تؤكدان عبثية الرجل في نظرته للمرأة، وهما لا تعكسان في حقيقة الأمر المشاعر الإنسانية الحقيقية.
- التعريف الإيجابي للإناث لا يصحّ إلا من خلال استحضار الذكور. وهذا ما نتبينه من هذه الاستعادة الكلاسيكية لصورتين: واحدة إيجابية ومرغوبة **للنساء**، باعتبارهن "**شقائق الرجال**"، وأخرى سلبية لهن باعتبارهن "**حبائل الشيطان**". وفي المحصّلة فهنّ "**الشرّ الذي لا بدّ منه**" كما ورد في حديث شريف.
- التحيّز الفاضح في المقارنة بين ولادة الصبي وولادة البنت بالاستناد إلى مفهوم الأمومة، والذي يبدو من خلال التركيز على أن "**أمُّ الولد بخير**[39]" في حين أن "**أم البنت بويل**". للجندرية مفاعليها حتى على صعيد أمومة الصبيان المفضّلة على أمومة البنات التي لا تورث إلا الويل؛ حتى ولو كانت "**الوالدة بكرية**".
- مقابلة بين "**كل ذكر يَمْذِي**"[40] أي يخرج منه المذي، و"**كل أنثى تَقْذِي**" ويراد بالقذى من الأنثى إلقاء البيض من رحمها. والمثل الذي أورده الميداني يُضرب في المباعدة بين الرجال والنساء ولو على الصعيد البيولوجي.
- تفضيل إنجاب الذكور على الإناث مفهوم ذكوري راسخ ومتوارث. ولكن البعض يعكس الآية فيفضل إنجاب **البنت** "**المليحة أو الكسحية**" على **الصبي** "**الفضيحة**". ويقابله مفهوم آخر يشدّد على أن "**حاملة الصبيان**" مفضّلة لأنها "**حاملة بحجر الصوان**".
- وفي المجال التعليمي نجد البعض من التقليديين، ممن كانوا يقارنون بين مردودات التعليم في صفوف الجنسين ويستخلصون بحسهم الانحيازي أن **تعليم الإبن** مفضّل فهو "**قشعة حال**" في حين أن "**تعليم البنت شغلة بال**".
- للّحية الذكورية دورها الإشهاري؛ في حين أن **اللحية زينة الرجال**. نجد في المقابل **أن الحياء زينة النساء**. مقابلة ذات طابع تذكيري بالثوابت الاجتماعية الثقافية المطلوب توافرها لدى كلا

---

[38] - **خطط جبل عامل**، ص. 194.
[39] - **ملامح الشخصية الفلسطينية في أمثالها الشعبية**، ص. 436.
[40] - **مجمع الأمثال** للميداني، 19/36.

الجنسين. والملاحظ أن اللحية عنصر مادي محسوس في حين الحياء سمة أو طبيعة إنسانية معنوية.

- العمل والسعي للارتزاق هو الدور المنوط بالذكر. لذا فإن "**قعدة الزلمة بالدار**" وعدم إتيانه أي عمل مفيد مستنكرة وغير مستحبة؛ لأنه بذلك أشبه ما يكون بـ"**طشّ المرة بالمسمار**"[41].
- معرفة الرجال الطيبين مفخرة وذخر في الشدائد، أما معرفة النساء فتورث خسارة مادية ومعنوية. من هنا فالمزاج الشعبي يرى إيجابية في "**معرفة** أو "**عِرْف الزلام** "**تْـجَـاره**" وسلبية في "**عِرْف النسوان خساره**"[42]. وهذا المفهوم خاطئ ويجانب الحقيقة المعاشة والتي باتت لا تفرق بين معرفة كلا الجنسين. والمثل يُضرب لتفاضلية العلاقات التي تقوم بين أبناء المجتمع الواحد.
- صلات الخؤولة مفضلة على صلات العمومة. من هنا تمايز النظرة إلى الخال حيث يميل المزاج الشعبي إلى اعتبار "**ثلثين إبن الحلال على الخال**" في حين يوكل النقيض إلى العم "**ثلثين إبن الحرام عالعمّ**". وللتذكير، فالخال يعتبر ذو شأنٍ في الأسرة. فإذا كان ولد ظاهر النجابة جعلوا ذلك أشبه به خاله، وإذا كان سيء الخلق نسبوا ذلك إلى عمّه[43].
- تقاسم الأدوار بين الأب والأم لا يظهر للآخرين على صورته الحقيقة. فحينما "**أبـي يغـزو**"، لا تترك له شريكة حياته مجالاً، لأن "**أمـي تحدّث**[44]" وهنا مثل يُظهر الإبن متعجباً من الأم التي تبادر إلى الحديث عن غزوات شارك فيها زوجها، ولا تترك له مجالاً للإفاضة عن نفسه.
- مقارنة غير منصفة تستند إلى التصنيف ذي الطابع الانحيازي حيث تُعزى ملكة الكلام إلى صنف النساء؛ في حين أن القدرة على الأفعال توكل إلى الرجال "**الكلام خلق للمرا والفعل للرجّال**"[45].
- وبغية تظهير الملامح السلبية لصورة المرأة في إطار المقارنة مع الذكر، يُستعان أحياناً بالكائنات الخفية والقوى الشريرة: "**قال الشيطان: أنا علّم الرجال وبتعلم من النسوان**"[46]. فالجنس اللطيف لا يحتاج إلى كبير عناء للتعلم، فهو أشبه ما يكون بالمرجعية لهذه الكائنات.
- المقارنات المعتمدة في عملية حثّ المرأة على الزواج لا تنصف الذكر بل تعامله باعتباره مطلوباً ومرغوباً لإتمام الزواج بمعناه الطقوسي؛ فالمشبهات به المستحضرة لهذه الغاية مهينة بعض الشيء. وهي تتراوح بين "**أعمى من التربة**" و"**ريحته طالعة**" و"**فحمة**" و"**من عود**" و"**ظل**" وصولاً إلى "**تغل**"[47] أي ثعلب). صحيح أن المراد هو التأكيد على تفضيل وجود أي زوج "**بأي ثمن**" ولكن

---

[41] - **ملامح الشخصية الفلسطينية في أمثالها الشعبية**، ص. 477.
[42] - **الجمان في الأمثال**، ص. 329.
[43] - **مجمع الأمثال للميداني**، 43/3.
[44] - **مجمع الأمثال للميداني**، 81/1
[45] - **الجمان في الأمثال**، ص. 327.
[46] - **الجمان في الأمثال**، ص. 327.
[47] - **أمثالنا الشعبية في الميزان**، 150/1.

هذه التمنيات قد لا تكون في محلها دائماً لأن التأني في اختيار الشريك أفضل من التهافت على إيجاده "**كيفما اتفق**"!

- لا يسلم الذكر من تنازع زوجته وأمه على استقطاب اهتمامه والتذكير بأفضالهما عليه فالبعض يسخر من التناقض الذي يعتري علاقاته بكلا الطرفين، فيتهكم منه قائلاً: "**عند أمه داخ وعند مرته ساخ**"[48]. ولكن الزوجة تُستحضرُ في معرض الموازنة بين الجهدين المبذولين لاسترضائه والتذكير بحسنات كل منهما "**أمه ربّته بكرشة، وأنا ربّيته بفرشة**" وفي كلتا الحالتين ثمّة تنازعٌ مرضي على حب الولد يتخذ شكل خصومة قد تلامس مرتبة العداوة غير المعلنة.

[48] - **الجمان في الأمثال**، ص. 371.

VII موقع الذكر في متون الأمثال الشعبية:

شخصية الذكر التي ابتدعت وتظهّرت في مضامين هذه الأمثال لا تبدو لمستخدميها غريبة أو منعزلةً عن واقعه الحياتي. فقد جُعِلت – وفق منتجيها ومروّجيها – شخصية إنسان عادي من الناس، له مواصفاتهم، ويمتلك مشاعرهم، ويتخذ مواقفهم، ويراكم تجاربهم، ويسعى في مناكبها إسوة بهم طلباً للارتزاق والعيش الكريم. رسمته الأمثال شخصاً طبيعياً واجتماعياً، يعيش تقاليد بيئته ويحترم أعرافها، يحب الناس ويحبونه، يقدرونه حيناً ويبغضونه أحياناً ويحسدونه أحياناً أخرى. وعلى الإجمال فقد استدعته، بتوصيفاته الطبيعية هذه، من الذاكرة الجَماعية دون أن تُسبغ عليه صورة الإنسان المثالي المغرّد خارج سربه أو المنفرد بنفسه. بل إن الصورة التي راجت، أو بالأحرى روّجت عنه، ولازمت شخصيته، هي "ربّ الأسرة". وله بهذه الصفة زوجة – أو زوجات – وأبناء وأحفاد، وبينه وبين شريكة عمره وقوعات شخصية وأحداث ومواقف تتمثل في توافقات في الرأي أو منازعات وخصومات في كيفيات تربية الأبناء والتعاطي مع الغير وإنفاق الأموال وتدبّر أمور الحياة اليومية. أقواله المرسلة إلى أفراد عائلته، وإلى الأقارب والأهل والجيران وزملاء الكار أو المهنة، والمصاغة على شكل نصائح وتمنيات توجيهات، تبدو على وجه الإجمال بعيدة عن التكلف الاجتماعي. فهي تنطوي على حكمة عملية ونقد اجتماعي ورمز فني وصراحة في التعبير، وعن خبرة إنسانية مكتنزة وفلسفة خاصة في الحياة والوجود تستمد ثوابتها من طبيعة اجتماعه الثقافي بما في ذلك الأعراف والتقاليد، ناهيك عن معتقداته الدينية.

الصورة المرسومة للرجل والمتناقلة جيلاً بعد جيل، عبر الأمثال الشعبية، تجد من ناحية ثانية صداها في مضامين الفن السابع ومن خلال أبطاله الموصوفين. وخير مثالٍ يُستدعى في هذا المجال هو الصورة النمطية والمعروفة لـ"سي السيد" باعتبارها نموذجاً ذكورياً عصرياً، يُسْتحضرُ لدى الكلام عن الشخصية الذكورية العربية التقليدية. فهي لا تخلو كما شاهدناها – بالأبيض والأسود – وسمعنا أقوالها واستعدناها مراراً، من معالم "الزوجية المسيطرة" و"الأبوية المفرطة" و"الذكورية الطاغية". وهنا يتشارك الموروث الشعبي وفن السينما معاً في التركيز على ظواهر التسلط والتفرد بناصية القرار التي تتضحُ بها هذه الصورة الرائجة في الأخلاد.

هذه الصورة الذكورية المسيطرة تتلاقى إلى حدٍّ كبير مع مضامين الأمثال المتمحورة حول الذكر، الناقلة لخطابه، والمصوِّرة لأفعاله، والملتصقة بصورته لجهة اختزانها تراثاً من هذه النمطيات الرائجة مشافهة والمدونة لاحقاً. هذه الصورة المروّجة – والمشتهاة – لا تدع لنا كبيرَ مجالٍ للتعاطف مع مواقفه وتفهّم قناعاته والاصطفاف معه بالرغم من الضرورات التي يمليها عليه دوره الأبوي/السلطوي، والتي تنبئ عنها الملامح والقسمات وتترجمها السلوكيات اللغوية الاجتماعية.

ولا يسعُ المراقب لهذا الصنف من الأدب الشعبي الرائج في صفوف العوام، على وجه الخصوص والذي يصار إلى التركيز عليه في الأفلام والمسلسلات التلفزيونية فيترسخ صوتاً وصورة، إلا التوقف عند

الانحياز الفاضح في نمطية صيغ المقابلات التي تتضمنها الأمثال المقارنة على الدوام بين الجنسين، وتحديداً بين الرجل وزوجته. المقابلة تستدعي طرفين؛ لذا فإن الأنثى التي لا تغيب في الإجمال عن الحضور، سلباً أو إيجاباً، في متون الأمثال عموماً، وهي بمجملها ذكورية الطابع لجهة الصياغة والخلفية والرواج والتدوين – تلعب أدوارها المرسومة في المواجهة أو الانصياع، في الممانعة أو القبول، في التباهي أو التحسّر، في التذمّر أو التصبّر، الخ...

VIII صورة الذكر في حديها الايجابي والسلبي:

القيم الاجتماعية التي ركزت عليها الأمثال الشعبية في تظهير صورة الذكر عموماً تراوحت ما بين واحدة تركز على الطابع المادي كالمال الذي يضفي هيبة على الرجال "**رجل بلا مال ما هُوبْ رجّال**[49]"؛ وست قيم معنوية.

وقبل أن نستعرض السمات المعنوية، يستوقفنا مثل فلسطيني يناقض المفهوم السابق؛ فينادي بأن البيت الأنسب هو "**بيت رجال ولا بيت مال**"[50] فيما لو خيرنا بين عنصري المال والرجال فبالرجال وبكدهم تأتي الأموال.

ونبدأ بالإسم "**اسم الجوز ولا طعم الترمل**"[51]، فالعقول "**عقول الرجال تحت أسنة أقلامها**"[52]، والوفاء بالوعد "**الكلمة في الراجل، والراجل هو الكلمة**[53]"، أي أن الرجل الحرّ يفي بوعده ولا يخلفه، ومثله "**الرجل لسانه عقاله**"[54]، يُضرب للمحافظة على الوعود والعهود التي يلتزم بها المرء؛ ونصل بعدها إلى حفظ الأسرار "**الرجال صناديق**"[55]، ويُضرب مثلاً لعدم إطلاع الآخرين على الأسرار؛ وعزة النفس "**كاد العروس يكون ملكاً**"[56]. والعروس تقال للرجل بمعنى أنه كاد أن يكون ملكاً لعزته في نفسه وأهله.

وفي المقابل ثمّة صور تُسْتحضرُ في متون أمثال عديدة وتستنبط إشارات للحطّ من قدر الرجل وذلك في معرض الهزأ والتعريض. فهو حيناً "**خلق باب برد الكلاب**[57]". وتعبير "**خلق الباب**" بالمفهوم الشعبي الفلسطيني كناية عن أيّ رجل حتى ولو كان "**خلق**" أي عجوزاً مهترئاً. وهو حيناً آخر يفتقد سمة الرجولة أو الدور الذكوري. "**إن غاب سيدي وإن حضر رجلين ستي أربعة**[58]"؛ ويُضرب في المرأة صاحبة الأمر والنهي. ومتى أهملَ الرجالُ النساءَ قيل عنهم في العراق "**ستين رجال على قحف أزرق**". والقحف هو

---

[49] - **الأمثال الشعبية في قلب الجزيرة العربية**، ص. 871.
[50] - **ملامح الشخصية الفلسطينية في أمثالها الشعبية**، ص. 438.
[51] - **الأمثال الكويتية المقارنة**، احمد الرومي، صفوت كمال، وزارة الإعلام، الكويت، ط. 1، 1980، 1772/1.
[52] - **مجمع الأمثال للميداني**، 410/1، وهو من أمثال المولدين.
[53] - **الأمثال المراكشية**، ص. 282.
[54] - **الأمثال الشعبية في قلب الجزيرة العربية**، 186/3.
[55] - **الأمثال الشعبية في قلب الجزيرة العربية**، 176/3.
[56] - **مجمع الأمثال للميداني**، 50/3.
[57] - **ملامح الشخصية الفلسطينية في أمثالها الشعبية** ص. 1123.
[58] - **الأمثال الشعبية الأردنية**، هاني العمد، منشورات وزارة الثقافة، عمان، "2"، 1996، ص. 113.

كسارة الأباريق. وحينما يفرّط الرجال في شرفهم يسخر منهم المثل الشعبي القطري فيصفهم بـ"**خروف مقرنن**" و"**التيس المعمّم**"[59]. وفي نجد يقولون: "**رجّال لا يسوى ولا عظم عجرود**"[60]. والعجرود ذنب الماعز ويُضرب مثلاً لبعض الرجال الذين لا يمتلكون من سمات الرجولة إلا المظاهر. ومتى عيّر الرجل فلملابسه، وعباءته تحديداً، نصيب "**ما في العباءة رجّال**"[61]. ومعناه أنه رغم مظهره كرجل فاضل، فهو لا يتصف بأخلاق الرجال.

التحيز للذكر لا حدود عمرية له؛ فبلوغ المرء الستين ينظر إليها العامة باعتبارها مفخرة للذكر "**إبن الستّين زهرة الياسمين**"؛ وفي المقابل فهي معيرة للأنثى "**بنت السكين خرج السكين**"[62] وهذه الصورة السلبية مردّها أن المرأة تكون قد فعلت فعالها داخل الأسرة مع زوجات أخواتها، فلعبت بينهن دور "الحماة" مما يؤجج نار المشاكل ويستجلب الأزمات والمخاصمات.

وفي بعض المواقع يتساوى الطرفان سوءاً وإيلاماً. إذ نجد لدى الميداني مثلاً يُضرب في المتقاربين في الشبه ويتوسل إلى تأدية هذا المعنى كلا العبد والأمة "**من قريب يشبه العبد الأمة**"[63]؛ يريد لا يكون بينهما كبير فرق. وهناك مثل آخر أورده ويعتمد فيه مبدأ المقارنة بين السكارى والقيان: "**تُطَفُ السكارى في أرحام القيان**"[64]، وهو من أمثال المولدين.

ومن الأمثال ما يظهر تساوياً جلياً بين الجنسين؛ "**بيت الشباب عذاب وبيت الفتيات خراب**"[65] إذ أن الآباء يكابدون العذاب في تربية الشباب من الجنسين سوء في متابعة سلوكهم وتصرفاتهم أو الإنفاق عليهم وتزويجهم.

IX- <u>ملاحظات عامة وأحكام تلخيصية</u>:

وفي المحصلة نتوقف عند ستة عشر حكماً تلخيصياً توجز نظرة كل من اللسانيات والتحليل النفسي إلى هذه المسألة اللغوية الثوب والنفسية المعالجة والاجتماعية المنحى:

1- التعاون على فهم المَثَل كظاهرة أنثروبولوجية:

التحليل النفسي وعلم الإنسان (الإناسة ، الأنثروبولوجيا) واللسانيات ثلاثة فروع معرفيّة تتلاقى وتتواضح جداً ولا تتغاذى فقط من أجل تفسير الإنسان انتهاضاً من اللاوعي الثقافي (الجماعي).

---

[59] - **الأمثال الشعبية في قطر**، أحمد عبيدان، قطر، 1986، ص. 80.
[60] - **الأمثال الشعبية في قلب الجزيرة العربية**، 177/3.
[61] - **الأمثال الكويتية المقارنة**، 144/4.
[62] - **ملامح الشخصية الفلسطينية في أمثالها الشعبية**، ص. 273.
[63] - **مجمع الأمثال للميداني**، 262/4.
[64] - **مجمع الأمثال للميداني**، 416/3.
[65] - **ملامح الشخصية الفلسطينية في أمثالها الشعبية**، ص. 438.

فهي كلُّها من علوم اللاوعي الأساسية المتكاملة التي تتضافر كيما تلتقط المعنى المتضمَّن للظاهرة النفسية الاجتماعية واللغوية، للظاهرة اللاوعية التي، في هذه المدرسة، وهنا للمثل الشعبي، هي الأواليات الدفاعية، والأمثال الزَّلَلِيَة (المغلوطة / actes manqués) والجذور أو الذكريات الحوادث الصَّدْمية المدفونة حيّةً في مقام اللاوعي حيث تستمر منه أو فيه موجِّهة وشديدة التأثير في السلوك الفردي والعائلي والاجتماعي، وكذلك في الوعي أي في الشخصية والفكر نفسه[66].

2- معنى الرَّجل أو الرجولة أو الذكورة ورموزه مشتركة في المثل والأسطورة والمعتقدات الشعبية:

المَثَل الشعبي والحكاية الشفهية والأسطورة قطاعات لغوية ونفسية تُدرَك حسب المدرسة العربية الراهنة في التحليل النفسي، وبالتالي في الإناسة (الأنثروبولوجيا) كما في اللسانيات . وهكذا فإن كلاً من هذه الظواهر يتناوله التحليل مرتبطاً مع الأخر بتداخل وتواضح أو تبادلية. ومن اليسير أن نلاحظ أن مضمون المَثَل ومعناه أو رموزه موجودة بكاملها في الحكاية الشعبية، أو في الأسطورة والخرافة ، وفي المعتقدات الشعبية أو المزاعم التقليدية والتُّرهات السائدة. وللحية والشاربين نصيب من هذه الرموز كما ورد في أحد الأمثال "**الناس ما تطلقش من اللحية** (الرجل المتعقل)، **وتقبض في الشارب** (الشاب لم يكتمل نضوجه العقلي بعد)"[67].

3-المثل الشعبي والحُلم يحملان رموزاً مشتركة للأب / الرجل في ظائفه وأدواره:

رموز الأب أو معناه ودلالاته ووظائفه مشتركة أو متماثلة إنْ في المَثَل الشعبي أم في الأحلام والرؤى. ففي الحلم وتماماً في المثل، الرجل / الأب هو الأصل. وعلى سبيل التفصيل، في اللغة والمثل وفي الحُلم والتلاعن الشعبي يكون الأصل هو عينه عضو الجنس أي الرجولة (والفحولة) عند الرجل. وهنا تجري عملية نزع الذكورة démasculinisation بانتزاع ذلك العضو.

4- تشابه وتكامل دلالات الأب اللغوية والرمزية واللاواعية في الانفعالات والتعابير الوجدانية:

حين التعجب يقول العربي: يا أبي! وكذلك يقول أيضاً حين طلب النجدة؛ وحين يفرح ويغنّي (يا بوي ! يابا أوف...). وتقول الصبية: يا أبي؛ أي تتوجه إلى الأب حيث هو رمز للحماية، وليس فقط للعدل والنجدة، وللمساعدة وتأمين اللقمة. وثمة ولدٌ يقول حين الوجع: يا أبي؛ ويقول آخر آخ يا أمّي وَيْنِك يا إمّي. هنا اللجوء إلى أحد الوالِدِيْن كشفٌ لما هو مطمور أو غير مفصوحٍ عنه أو غير واعٍ عند الصابر طفلاً كان أم راشداً، كهلاً أم شيخاً.

5- اللسانيات وفلسفة اللغة وأسرار البلاغة:

انفتاح البلاغيات العربية أو تفاعلها وتواضحها مع فلسفة التحليل اللغوي المعاصرة:

نجح فلاسفة اللغة، في داخل المدرسة العربية الراهنة في الفلسفة والفكر... فقد أعادوا التدقيق والتنظير في علومٍ لسانية من نحو: علم الدلالة (السمانطيقيا)؛ علم السَّمْيوطيقا (السَّميولوجيا) أي

---

[66] - أطلقت مدرسة التحليل النفسي والإناسي واللساني أسم الأمْثالية على العلِم أو المبحث أو الدراسة للمَثَل.

[67] - **الأمثال الشعبية المغربية**، ص. 341.

علم الإشارات (والعلامات والأيقونات...)؛ التداولية؛ الميميائية ؛ الإيمائية... ومع النجاح العربي الراهن في هذه الميادين، تحقّق أيضاً نجاحٌ آخر في ميدان دراسة البلاغة في اللغة العربية ضمن فضاء فلسفة اللغة عند سيْرلْ؛ يبرز في الفلسفة الأنكلوسكسونية اللغوية المعاصرة والراهنة.

6- المَثَل تعبيرات لغوية لاواعية. اللاوعي والبلاغة أو الإناسة واللسانيات والتحليل النفسي: لاوعيُ المثل يُعتبرُ معتمِداً أسرار البلاغة. فالتعبير بالمثل ، كالحال في الأسطورة والحلم وحتى المرض النفسي، يكون تعبيراً تبعاً لأواليات وقوالب بلاغية معتمدة هي التشبيه والمماثلة أو الاستعارة والتورية وما إلى ذلك مما ذكره جيداً علماء البلاغة العرب الأقدمون. والمثل يُشبّه ويكنّي؛ بقدر ما يلجأ أيضاً إلى النحت، والإطناب والإضمار، والإزاحة، والنقل؛ بل وكذلك إلى التلميح، والتغطية والوضوح مع الإبهام... لكن أعقد الأجهزة التعبيرية هنا هي : دمج المتضادَّيْن؛ أو لعبة المتناقضَيْن المتكافئَيْن ... وفي ذلك يلتقي التعبير بالمثل مع التعبير بالنكتة والأغموزة والألموزة. وليس هذا فقط في الحُلم والخرافة والحكاية الشعبية؛ فذلك موجود حتى في المرض النفسي (را: صراع القطبين داخل العاطفة الواحدة أو الشخصية الواحدة، داخل الوعي أو الإدراك.

7- أخيراً ، لابد من الإشارة إلى ما قد يُعد النقطة الأهم والأرض المشتركة بين تلك القطاعات الأناسية المذكورة. فالأوالية الأبرز هنا هي الترميز. فالمثل المتعلق بالأب والزوج، بالرجل والرجولية ومن ثمّ بالفحولة، يكشف ويحمل رموزاً أثيرة هي عالمية وكونية أي خاصة بالإنسان. إنّ علم الرمز ميدان يدرس الدلالات اللاواعية والمصادر الغريزية والمكبوتات في عالم الرّجل – المرأة أو الذكورة – الأنثوية ...[68] وعلى سبيل المثال، وفي معرض التشكيك بالذكورة يقول المثل العربي "**واش إنت راجل ، أو مرا**"[69].

8- القراءة اللسانية للمثل المنصبّ على أنثنة الرجل ورَجْلنة المرأة

ترفض الحكمة الشعبية تعدّي وظائف المرأة على الرجل؛ وبالعكس. فلا يحق للأنثى أن تكون رجلاً قوياً أو محارباً؛ ولا يحق للديك أن يكون دجاجة. (را : عواقب خصي الديك الفيزيولوجية والمظهرية)؛ ولا يحق لها أنْ تَسْتَّديك ...[70]

9- المثل حمّال الرموز الجنسية للفحولة والإخصاب من

رموز الرجل، في المثل والأغنية والحُلم، وكافة التعبيرات الشعبية، الشمس (والقمر أيضاً) والنار ،

---

[68] - عند اعتماد المثل والحلم والأسطورة- بل والعُصاب – بالأجهزة البلاغية نفسها، را الأحلام والرموز أداة كشف وعلاج ... ، ص ص 350-367.

[69] - **الأمثال الشعبية المغربية**، ص. 349

[70] را: المرأة المسترجلة ...؛ أيضاً : الأقوال والأمثال والحكايا المنصبّة على الرجل المخصي.

والثور وكل حيوان مذكَّر، الأشياء الطويلة والأسلحة النارية ... ومن رموز الرجل الأخرى والتي تعرفها حضارات الإنسان، عبر الأمكنة والأزمنة، معرفة جيدة ومعيوشة، هناك: الأشياء الطويلة (القضيب، العصي، الأزاميل، المعاول)، والأشياء التي تدخل وتمزق وتفتح، والأشياء التي تحفر وتنقب "**الرجل مع المرا كما الخيط مع الإبره**"[71] ، أو تدق " **طش المره** بالمسمار" [72]وتضرب وتقتل "**ضرب النبال**"[73] ، أو تسحق وتهرس وتطحن، أو ترتفع وتعلو أو تصعد وتنزل، والأشياء التي يستند إليها " **مرتك مسند ضهرك**"[74]. وثمّة أيضاً الأشياء التي تفرز (را : البصاق وشتى إفرازات البدن الأخرى إذ هي كلها تتبادل الرمز الواحد)[75]. وفي الأقوال والأمثال والمأثورات ، داخل الإناسة العربية، مألوف معروف تماماً أن المَنْي يترمز بالبصاق. والشواهد "الأمثالية" على ذلك كثيرة يترافق فيها الكلام مع الابتسامة السريعة وأحيانا مع الاعتذار المبطَّن وعبر كلمة "عدم المؤاخذة" أو كلمة "بلا معنى"[76]. وقد مرّ معنا مثل يوازي بين "مذي الذكر" و"قذى الأنثى".

10- المثل كما سائر المتكآت اللغوية يرسم لنا أوليات الدفاع المعتمدة عند الجنسين ويرصد أدوار الرجل المتصارعة ويستعرض جملة وظائف الذكور ويظهر معالم سلطتهم وائتلاف مصالحهم. ويقارن أيضاً بين قطبي الرجولة – الأنوثة.

11- للمثل الشعبي معانيه الإيحائية والتضمينية اللاواعية. فما يثيره استعمال بعض العناصر اللغوية، ولاسيما الكلمات، من العواطف والأفكار والتهيؤات في ذهن الفرد أو الجماعة، تنظر إليه اللسانيات وعلم التحليل النفساني باعتباره مفاهيم مقترنة وظلالٍ دلالية. من هنا تكتسبُ المعاني المتضمّنة / القابعة – وغير الملفوظة بالطبع – في متن المثل أهمية ملحوظة في تداعياتها اللغوية / النفسانية مثلما في انعكاساتها السلوكية على مستخدم المثل الشعبي مرسلاً كان أم مستقبلاً.

12- إن استحضار المخزون الثقافي للجماعة وتوظيف العناصر والوقائع المتصلة بالتاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لمجموعات عرقية معينة، من شأنهما إثارة إيحاءات متداخلة لدى المتلقي. كما أنها تفتحُ المجال أمام الاختصاصين لقراءة البنى وتحليل الوظائف والأدوار والتشارك في دراسة أنثنة الوجود أو ذكرنة عالم الأشياء فضلاً عن معاينة مختلف العلائقيات القائمة بين قطبي الحياة.

---

[71] -**الأمثال المراكشية**، ص. 66.
[72] - **ملامح الشخصية الفلسطينية في أمثالها الشعبية**، ص. 477.
[73] - والمثل هو "ضرب النبال ولا توبيخ النسا للرجال"، **الجمان في الأمثال**، ص. 432.
[74] - تعبير مجازي في المسلسل الرمضاني السوري "أهل الحارة"، 07/10/3
[75] - رأينا أن رموز العجز الجنسي والضعف الجنسي، وعقدة الخصاء، تتمثل في عجز وإعاقة أو إضعاف ونزع ومنع هذه الأشياء والأدوات من القيام بوظيفتها.
[76] - يعتمدون هاتين الكلمتين حين التحدث عن الأشياء الطويلة.

13- بينت لنا مجريات الدراسة، أن لغة المثل في محاكاتها المباشرة للواقع، تنقل بفصيحها وعاميها هواماتنا وانفعالاتنا ومجمل اهتماماتنا الحياتية. وباعتبارها نسقاً (نظام) أو بنية، فهي كالأغنية والحكاية وحتى كالعقدة النفسية أو الُعصاب (الهفوة، زلة السان، إساءة الفهم، ...) ذات معنى ظاهر وصريح يُدرك بمثابة رسالة.

14- دؤاسة المثل لا يمكن أن تغيب الالتفات إلى معالجة إشكالية الخطاب. فرسائل المثل، المكتفية بذاتها، والمصاغة بواسطة الجملة المكثفة، هي أصغر مقطع ممثل بصورة كلية وتامة. للخطاب كما يقول عنه مارتينه. إنها تختزن أفعالاً وأقوالاً وانفعالات شتى، وتؤدي معانٍ ، لكل معنىً مستوياته المتعددة، المتنوعة والمختلفة.

15- تسعى اللسانيات، وشأنها هنا شأن التحليل النفسي، لدراسة أشكال التعبير الشعبية بغية كشف المعنى الكامن أو القابع، اللاواعي المطمور، الدفين حسياً والمؤثر المتحكم في سائر سلوكياتنا اللغوية الاجتماعية. وهما لا يسقطان من حساباتهما علم التحليل النفسي ونتاج لاكان Lacan أشهر العاملين في حقله[77].

16- إن شيوع المثل وسهولة استحضاره متعلقان أساساً ببناه اللغوية المكثفة، المرنة، والمسّجعة. وبذلك يصح القول إن البنى اللغوية عموماً وتلك العائدة للمثل الشعبي العربي خصوصاً هي بنى كل الناس. أما بالنسبة للعلاقة بين البنية اللغوية واللاوعي، وفق مفهوم لاكان، فقد جزم مارتينه، في حوار لي معه، بأن " اللاوعي نقيض البنية". فهو " الحقيقة الإنسانية التي يخفيها الناس ويكشفها التحليل النفسي". وفي المحصلة، وضمن هذا التلاقي بين هذين العلمين، نستخلص مع مارتينه أن البنية اللغوية – والمثل الشعبي أنموذج حيّ لها – "هي بنية كل الناس"، وهي ليست تحديداً "بنية تعليلية نفسية" كما يطرح بعض العاملين في التحليل النفسي[78].

XI – خاتمة

المثل الشعبي الذي استعرضنا نماذج مؤشرة منه تتمحور حول صورة الذكر، خرج من حالته الفردية التي تأسّس في ظروفها وعُرف وعُرفت عنه وبه، لفترة سابقة، وانفتح على رحاب الفكر الجماعي والممارسة العملية. فتداولته الجماعة في سياقات أكثر رحابة ودجّنته، أو هي لاءمت بينه وبين وقائعها وظروفها الطارئة والمستجدّة كي يواصل التعبير والإخبار عنها.

---

[77] - وسبق لي أن بحثت في العلاقة بين اللسانيات والتحليل النفسي وبين مارتينه نفسه ولاكان . وقد اتهمه صاحب " مبادئ اللسانيات العامة" بأنه "يغازل" بواسطة اللسانيات وأنه حاول تقديم التحليل النفسي بـ "ثوب لساني" وحاول استدراج اللسانيات في غير إتجاه.

[78] - أنظر مجلة الفكر العربي العدد "66" ، ت1 – ك1 1991، ص. ص. 212-224 ؛ وأنظر أيضاً كتاب **"حوار اللغات"**، نادر سراج، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2007، ص.ص. 150-152.

المثل الشعبي فرع على أصل هو العقلية الشعبية أو المزاج العام. إنه انعكاس دينامي للاجتماع البشري بعقائده وأنماط سلوكه اللغوية الحية. **تسويغية المثل وتوفيقيته، أو ذرائعيته وتكامليته** التي استعرضنا نماذج عربية وافرة منها هي في الحقيقة دلالات عفوية في آنٍ معاً لعقلية هذا الاجتماع البشري وتفكيره وأخيلته خلال مراحل معينة من حياته، وبكلمة موجزة لطرائق الانتظام العقلي والاجتماعي الثقافي الشائعة التي يسلكها أفراده في تعاملهم اليومي مع ذواتهم ومع العالم من حولهم. فأمثالنا هي في النهاية جزء من مروياتنا الشعبية التي تسعى لتفسّر عقليتنا وتبسّط تشابك علاقاتنا البشرية، وتتيح متنفساً عفوياً لتهويماتنا وتداعياتنا.

هل هناك انتقائية في الأمثال؟ يبدو أن **الذرائعية** (البرغماتية) هي الأكثر وضوحاً في موضوع الأمثال. فالمثل كما رأينا في المشهد الذكوري يكاد يكون **إسناداً لحالة دفاعية**، فلكل وضع طارئ مثله الخاص. وإذا كانت المناخات النفسية والاجتماعية، ناهيك عن الأحداث والوقائع التاريخية سابقاً، هي التي تؤسس لرواج المثل في أوساط جمهوره الذي يستسيغه دون سواه، وهي التي تنقله بالتالي من حيّز الضيق إلى مستويات أكثر انفتاحاً وشعبية، فمن باب أولى الإشارة إلى أنه ليس هناك من ازدواجية شعبية واحدة تبرز في عملية إنتاج المثل وتسويقه ورواجه. فمتناقضات المجتمع ومصالح أبنائه – على اختلافها وبغضّ النظر عن مشروعيتها – حاضرة أبداً في ثناياه، وهو في الحقيقة نُسِلَ من رحم هذه المتناقضات وتضارب المصالح، واستمر في ضوء مناخاتها. التناقض الذي نستشعره في الموقف الأسري، وبالتالي في المثل الناقل لذيول هذا التناقض، مؤشر حيوية وتكاملية ودليل على التنوع الثقافي الاجتماعي في مجتمعاتنا وفي المنطقة العربية.

لماذا تروج الأمثال الأسرية أكثر من سواها؟ ربما لأن الظروف التي عاشها ويعيشها مجتمعنا أملت ذلك التوجه وأنعشت هذه الثقافة الكلامية الفضفاضة والملونة. الواقع أن الروحية العامة في الأمثال العربية، وأمثالنا اللبنانية فرع باسق من دوحتها، تعكس النفسية الواثقة المطمئِنة، والمتفائلة، المنفتحة على الحياة، لا اليأس أو التشرذم أو السوداوية. فكلّ مشكلة زوجية مهما تعاظمت صعوبتها، وكلّ أزمة عائلية أياً بلغت شدتها آيلة إلى أن تجد حلاً أو حلولاً مرضية تحقق المصالح العامة لأفراد الأسرة وتفرج كربهم وتعيد مياههم إلى مجاريها.

وفي المحصلة، فالكلام الحقيقي عن كنه ودلالة التحولات اللاحقة بصورة الذكر في خطابنا اليومي، بما في ذلك موروثنا الثقافي، لا يستوي برأينا إلا متى قرأناها في ضوء المتغيرات الثقافية الاجتماعية الحادثة في مجتمعنا المعاصر والتي تتأثر لا محالة بالانفتاح الإعلامي والتدفق المعلوماتي، فضلاً عن العامل الاستهلاكي والنزوع إلى احترام مقولة الجندر في سلوكياتنا وسبل تخاطبنا. هذه التحولات نلخصها كما يلي:

- ثمّة قطيعة سلوكية وتعبيرية بين المجالين القديم والمعاصر اللذين ظهّرت في ثناياهما صورة الذكر، الرائجة، والمبتغاة لا بل المشتهاة،
- الوجود الذكوري الذي استعرضنا نماذج عن توصيفات أدواره وأبطاله هو في الآن نفسه مجالٌ للتبادل الدلالي بين القطبين / الجنسين اللذين يتراشقان، لفظياً، دلالات وتعابير التقدير والاستحسان أو التبخيس والتنقيص، وفق تبدل الظروف والأحوال،
- السياقات المعاصرة تشهد موتاً وظيفياً لغالبية هذه المَثَليات، ذكورية كانت أم نسائية، ومن قلة الإنصاف اعتبارها قائمة، ومحاكمة الرجل – سلباً أو إيجاباً – في ضوئها،
- إن ما يطفو منها على سطح الواقع المعاش محدود التداول وينسحب على مجالات متقاطعة هي بأغلبها سلوكية اجتماعية ومعيشية،
- إن توظيف المَثَليات حالياً مغاير للدلالات القديمة التي حملتها وللأحوال الاجتماعية التي أنتجتها وللجماعة اللغوية التي روجتها؛ ولكنها بصيغتها الذكورية أو الإناثية موجودة في وعينا ومسجّلة في مدوناتنا،
- الاستعادة الحالية العلنية للمَثَليات تندرج ضمن المجال الاستهلاكي أكثر منها ضمن المجال التعبيري. فقد أمست اليوم حكراً على الفضائيات العربية التي باتت توظفها أكثر فأكثر لإسناد الكلام واختصار الأقوال وإثبات الوقائع وتأكيد الانتماء. فهي تُستحضرُ غبّ الطلب، وتجري على الألسن في مختلف الحالات المتناقضة لمرسلها؛ أي في الانفعال والثوران مثلما في الهدوء والاسترخاء،
- بغضّ النظر عن مقولات المساواة واللاتفرقة الجنسوية، فالذكر لا يزال يتبوأ مقعده البطريركي. وما علينا سوى استعراض مسلسلاتنا الفضائية عناوينَ وأبطالاً. ففي بعضها ثمّة أيقونات ذكورية ساطعة مثل "الحاج متولي" أو "أبو عصام". وفي بعضها الآخر هناك نساء يرفضن أن يرفلن "بجلباب الأب". ولحسن الحظ نرى الذكر في بعضٍ ثالث يفسح في المجال، – ومن باب اللياقات – أمام شريكة حياته كي تحلّ قبل ضميره المنفصل "مرتي وأنا"!
- وبكلمة، فحَواري الأمس التي أنتجت هذا الكمّ من المرويات الشعبية، بما فيها المَثَليات التي يتساوى، إلى حد كبير، في ثناياها حضوراً كل من المرأة والرجل، تنحسر مكاناً أمام الحيّز الفضائي المتمادي تأثيراً متعاظماً، والذي يدغدغ كواموننا وتهويماتنا، ساعياً بصور غير مباشرة لاستعادة صور الذكر المظفّرة، التي وهنت ملامحها وضعف حضورها. وحسناً فعل بعضها في الإفساح في المجال أمام صور العائلة مجتمعة أو المرأة تحديداً.

****

تأسياً على ذلك، فما لاحظناه هو أن الاستحضار الإعلامي المرئي لصور الرجل الصارم والقاسي و"المتسيّد" والمفرط الصلاحية في إطار عائلتيه الصغيرة والممتدة، من خلال الأمثال الشعبية والأقوال السائرة التي أجريت على لسانه، لم تخدم في المطلق صورته الذكورية المأمولة. ولا هي أسهمت في تظهير صورة مثالية ومشتهاة له، حتى ولو في سياق "الزمن القديم والجميل". فردات الفعل النقدية، والعنيفة إلى حد ما، التي لاقتها مسلسلاتنا العربية التلفزيونية – والرمضانية تحديداً– تسببت برأينا في "تسفيه" دورٍ مستعاد من ثنايا الماضي لذكورية "مأزومة" تخطاها الزمن ووهنت ملامحها، وغاب خطابها أو يكاد بغياب ظروف إنتاجه وأسباب رواجه!

****